obeikandl.com

obeikandl.com

ضرب الإسكندرية

. كانت إنجلترا تستعد للحرب قبل انعقاد مؤتمر الأستانة وخلال اجتماعه وقبل أن يقر قراره بدعوة تركيا إلى إرسال جيش لها إلى مصر. . وآخذت تدبر الأسلوب والذرائع للتعجيل بضرب الإسكندرية، لكى تضع المؤتمر أمام الأمر الواقع.

فأوعزت إلى الأميرال إلى سيمور قائد الأسطول البريطانى أن يخلق أية وسيلة للتحرش بمصر لإثارة الحرب عليها، أى أنها أخذت تخلق "الحالة القهرية" التى أشر إليها اللورد دفرين فى مؤتمر الأستانة واشترط إضافتها إلى قرار الامتناع وكان يستعين برأى الجالية البريطانية فى خلق أسبابه، ووجد على الأخص من السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الإنجليزى عونا كبيرا له فى ذلك. . إذ كان من أشد غلاة الاستعمار ومن الداعين إلى احتلال مصر. وكان بعد رحيل السير أدوار مالت الممثل الفعلى لبريطانيا فى مصر، فلا غرو أن كان على اتصال دائم بالأسطول.

ولم يكن أسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لإثارة القتال. . فقد أرسل الأميرال سيمور فى أول يولية سنة ١٨٨٢ إلى مجلس الأميرالية الإمبراطورية ينبئها أنه اكتشف بعض ترميمات يقوم بها المصريون فى حصون الإسكندرية، وأنهم يركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه، وأن الاستعدادات الحربية قائمة فى البلاد، وأن عرابى معتزم سد بوغاز الإسكندرية لحصر البوارج الإنجليزية التى كانت راسية فى الميناء.

وبديهى أن هذا الاكتشاف إنما كان وسيلة مختلفة لتسويغ الشر

والاعتداء، فإن أية ترميمات تجرى فى الحصون لا يمكن أن تكون وسيلة مشروعة لإثارة الحرب والقتال، إذ كل دولة حرة فى أن تقوى معدات الدفاع فى بلادها، بل واجب عليها أن تفعل ذلك فى كل وقت.. وخاصة فى مثل تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها مصر، فإن مجرد حضور الأسطول البريطانى فيه معنى التهديد بالتدخل المسلح، على أنه يكن ثمة ترميمات جدية تخيف الأسطول الإنجليزى تشغل باله.

وقد أجابت الأميرالية الإنجليزية فى ٣ يوليه على برقية الأميرال سيمور بأن يمنع كل محاولة لسد بوغار الإسكندرية، ورخصت له بأن يطلب وقف الأعمال الجارية فى الحصون، وفى حالة الرفض فليدمرها بمدافعه.

وتدل الدلائل والبينات على أن الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الإسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الأسباب والملابسات، وذلك قبل اختلاف حكاية ترميم الحصون، وأنا ذاكرون هذه الشواهد فيما يلى:

أولا - فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٢ عرض سفير إنجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل ذى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا أن لا خطر مطلقا يتهدد الحماية التى يراد فرضها عليها لأن احتلال القناة قد يؤدى إلى قط ترعة الإسماعيلية واستهداف القناة البحرية ذاتها لأعمال عدائية، وختم دى فريسينيه دوابه بأن احتلالها عمل لا مسوغ له.

ثانيا - يقول المستر بلنت أن وزارتى الحربية والبحرية فى إنجلترا عقد النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى إنجلترا فى شهر يونيه سنة ١٨٨٢، وكان يعتقد أن الغرض منها تقويه مركز إنجلترا فى مؤتمر الأستانة، ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر.

ثالثا - موقف إنجلترا فى مؤتمر الأستانة وإصرار اللورد دفرين على وجوب التدخل الحربى فى شؤون مصر لقمع الثورة، وإضافته كلمة (الحالة القهرية) إلى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد كما تقدم بيانه، كل ذلك يدل على ما كانت تضمره من التدخل بمفردها.

رابعا - منذ إن جاء الأسطول البريطانى فى مايو تعاقد مع تجار الأطعمة على توريد المؤزنة اللازمة للأسطول لمدة ثلاثة أشهر.. وليس هذا عمل أسطول جاء لوقت محدود بقصد حماية أرواح الأجانب كما قال الإنجليز عند حضوره.

خامسا - أرسل المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام إلى المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا برقية من الإسكندرية فى ٢٨ يونية سنة ١٨٨٢ يقول فيها: "إن هجرة الأوربيين مستمرة والشعور العام هنا أن التدخل الإنجليزى أصبح وشيك الوقوع ولم يبق فى القنصلية الإنجليزية إلا كاتبان يسجلان أسماء الإنجليز الذين يرغبون البقاء فى مصر"

سادسا - أرسل المسيو دى فورج De Forges قنصل فرنسا العام إلى المسيو دى فريسينيه برقية من الاسكندرية يوم ٤ يوليه يقول فيها: "كل الدلائل تدل على أنه سيقع عمل حربى عاجل من الإنجليز سواء باشتراكنا أو بدونه"

سابعا - اعترف الأميرال سيمور فى يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ بأن أعمال الترميم التى زعم أنها كنت جارية بها لغاية يوم ٥ يوليه أوقفت ومع ذلك أصر على الضرب.

ثامنا - تدبير مذبحة الإسكندرية من الأدلة على تبييت إنجلترا النية على الاحتلال.

تاسعـا - عهدت وزارة الحـربية البـريطانية إلى المستـشرق الأسـتاذ بالمر Palmer بالمجئ إلى مصر وارتيـاد صحرا سينا لرشوة القـبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشـوب الحرب، وقد حضر، وقابله المسـيو جون نينيه فى الإسكندرية عرضا فـقال له الاستاذ بالمر: "أنصحـحك بمغادرة القطر المصرى لأن الإسكندرية ستـضرب بالقنابل عـما قريب وسـتكون عرضـة لأن يقتلك الأهلون".

وقد قام الاسـتاذ بالمر بمهمتـه، ولكن قتله البدو هو وصحـبه. وحوكم قتلتهم عقب الاحتلال فحكم عليهم بالإعدام!

كل هذه الشـواهد والنيات تدل عـلى سبق إصـرار إنجلترا على ضـرب الإسكندرية واحتلالها مهما كانت الأحوال، أو اختلفت الأسباب

التحفز للضرب

فى ٦ يوليه أرسل الأمـيرال سيـمور إلى طلبـة عصمت قـومندان موقع الاسكندرية بلاغا أو بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون. فأجابه طلبة فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحـصون ولم يجر فيها أى عمل جديد، فـأيقن العارفون بحقائق الأمـور أنه نذير الشر، وأن الحرب واقعة لا مـحالة. وأوعز قنصلا إنجلتـرا وفرنسا إلى رعاياهما البـاقين بالمدينة بالمبـادرة إلى الرحيل عنهـا، فتسـابقوا إلى الهـجرة والنزول إلى السـفن التى بالميناء. وبلغ عدد المهاجرين الأوربيين منذ حـوادث يونيه إلى ما قبل الضرب نحـو ٩٩ فى المائة من عددهم الأصلى، وهاجـر كثـير من سـراة المدينة إلى داخل البلاد، على أن معظم الأهلين بقوا بها.

لم يقتنع الأميرال سيمور بجـواب طلبة باشا. . وهيهات أن يقتنع، لأنه إنما يبغى من جوابه أن يختلق سببا مكذوبا ليتذرع به إلى الضرب.

وإمعانا فـى التحرش بعث الأميرال إلـى طلبة باشا عصمـت بلاغا آخر يمهد به إلى الإنذار النهائى، هذه ترجمته:

"البارجة انفنسبل فى ٦ يوليه سنة ١٨٨٢

"صاحب السعادة.. اتشرف بإخباركم إنى علمت من طريق رسمى أنه قد صار البـارحة تركيب مدفعـين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفـاع القائمة على البحـر وأن بعض استعـدادات حربية قـد عملت فى واجـهة الإسكندرية الشمالية تحديا للأسطول الذى تحت قـيادتى، فيجب على والحالة هذه أن أنبه عليكم بوقف هذه الأعـمال فـإن لم تقف وتجددت يكون واجـبا على تدمـير المعدات الجارى العمل فيها".

فرد عليه طلبة باشا عصمت بالجواب الآتى:

"عزيزى الأميرال الإنجليزى

"اتشرف بأن أنبئكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليه الذى تخبروننى فيه أنه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمـالا أخرى جارية على شاطئ البحر.. فردا على ذلك أود أن أؤكد لكم أن الأخبار المذكـورة لا حقيقة لها، وأن هذه الأخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه.

"هذا وأنى لمعتمد على عـواطفكم المتشبعة بروح الإنسانيـة وأرجو قبول احتراماتى".

ولم يكتف الأميرال سيمور بطلب منع التحصين، بل طلب أن تسلم له الحصـون التى يزعم أنها تهدد الأسطول! وفى صـبيحـة ١٠ يوليه أرسل إلى طلبـة باشا عـصمت انذارا نهـائيـا يطلب فيـه تسليم البطاريات المنصـوبة فى

الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى ساحل ميناء الإسكندرية الجنوبى وإلا ضرب الحصون فى صبيحة الغد - ١١ يوليه - ومعنى ذلك تسليم الحصون فى صبيحة الغد - ١١ يوليه - ومعنى ذلك تسليم الحصون ذاتها.

وهذا نص الإنذار النهائى:

"اتشرفت بأخبار سعادتكم أنه نظرا لأن الاستعدادت العدائية الموجهة ضد الأسطول الذى أتولى قيادته وأخذه فى الازدياد طول يوم أمس فى طوابى صالح وقايتباى والسلسة فقد عقدت العزم على أن أنفذ غدا - ١١ الجارى - عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ يوم ٦ الجارى أن لم تسلموت إلى حالا قبل هذه الساعة البطاريات المنوصبة فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطئ ميناء الإسكندرية الجنوبى لتجريدها من السلاح".

وعقد الخديو بسراى رأس التين مجلسا عاما دعا إليه الوزراء وكبار رجال الدولة ليستشيرهم فى الموقف وفيما يجب أن يكون عليه جواب الحكومة على الإنذار النهائى. فاستقر رأى المجلس على رفض مطالب الأميرال..

وفى المساء حرر الوزراء الرد على الإنذار النهائى طبقا لقرار المجلس وهذا نصه: "لم تعمل مصر شيئا يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات اضطرارية فى ابنية قديمة، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل. ونحن هنا فى وطننا وبيتنا، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا د كل عدو مباغث يقدم على

قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانكليزية أنها باقية بيننا. ومصر الحريصة على حقوقها الساهر على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدافع ولا أى طالبة دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح.. فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسؤليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع، على الأمة التى نقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الإسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الإنسان ولقوانين الحرب".

يتضح من البيانات والمراسلات المتقدمة أن الإنجليز كانوا مصممين على احتلال الإسكندرية سواء ضربوها أو لم يضربوها وسواء قبلت طلباتهم فى الإنذار النهائى أو لم تقبل، ولم تكن الوسائل السلمية كافية مجدية فى منعهم عن تنفيذ ما عزموا عليه.. فالمجلس العام الذى اجتمع برئاسة الخديو وقرر رفض الإنذار كان على حق فى قراره. ولو أنه قرر التسليم بمطالب الأميرال سيمور لما كان يؤدى إليه التسليم أن يقع الاحتلال دون مقاومة من جانب مصر، ولم يكن هذا موقفا مشرفا، فليس الخطأ فى رفض مطالب الأميرال، بل الخطأ فى الإنقسام الذى كان واقعا بين الخديو والعرابيين، وكان عليهم أن يتلافوا ذلك الإنقسام الذى أضعفت الجبهة المصرية فى ساعة الخطر، ولكن كلا الفريقين لم يبذل سعيا جديدا فى تلافيه، وكلاهما مخطئ من هذه الناحية.

الحصون والأسطول

يحمل بنا قبل أن نتكلم عن وقائع الضرب أن نقابل بين القوتين المتحاربتين، لأن من هذا البيان يتضح من كان مقدارا له الفوز والنصر.

كان بالإسكندرية فى ذلك الحين عدة حصون تسمى "طوابى" جمع طابية، وهذا الاسم متداول حتى اليوم بين سكان الثغر، ولا يزال بعض هذه الحصون (الطوابى) قائمنا حتى اليوم تبدو عيه آثار الخراب، وبعضها لم يبق له وجود.

وهذه الحصون كانت تمتد على شاطئ البحر من ناحية العجمى غربا إلى أبو قير شرقا.. فأولها من الغرب طابية "العجمى"، وهى قائمة فى جزيرة العجمى التى يسميها الإفرنج جزيرة المرابط - أو ماربوت كما يكتبونها - ولذلك العجمى وتسمى أيضا طابية العجمى البحرية تمييزا لها عن طابية العجمى القبلية التى سيرد الكلام عنها.

واكنت طابية العجمى البحرية من أمنع حصون الإسكندرية، ويوجد تجاهلها على اليابسة طابية أخرى تسمى طابية العجمى القبلية، وتعرف أيضا بطابية "العيانة"، وهذه التسمية معروفة بين أهل هذه الجهة ووواردة كذلك فى خريطة مصلحة المساحة.. ولم تكن لها أهمية حربية، بل لم تشترك فى الضرب إذ لم يكن تم إنشاؤها. ويلى هذه الطابية شرقا طابية "الدخيلة"، ثم قلعة "المكس" وكانت من أمنع القلاع، ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء "البوغاز"

ويلى قلعة "المكس" على طول الشاطئ الجنوبى للميناء عدة حصون واستحكامات، وهى البرج نمرة ١٥، فطابية "القمرية" فطابية "أم قبيبة"، ثم برج مستدير فيه مدفعان، ثم طابية "صالح".

وعند "باب العرب" طابية تسمى طابيـة باب العرب تعادل طابية المكس فى تسلحيـها، وتقفل لسان الأرض الـواقع بين البحر وبحيـرة مريوط، وهى واقعة إلى ما وراء المقطع القديم الذى خرقه الإنجليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به ميـاه البحر إلى بحيرة مريوط فأغرقت يومئـذ قرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة إلى مستنفع ردئ.

وفى شبه جزيرة رأس التين عدة حصون تحمى الميناء من الجهة الشمالية، وهى طابية "الفنار" التى تحيط بفنار الإسـكندرية وتشرف على الميناء، فطابية "رأس التين" الواقعة شمالى سراى رأس التين، فطابية الاسبتالية.

وتلى هذه الحصـون شرقا طابيـة "الأطة" وهى كلمة تركيـة تنطق أضه وتعنى الجزيرة، وتسمى فى الإسكنـدرية طابية القضا - الواقعة شـرقى حمام الأنفوشى - ثم طابية "الهلالـية" ثم طابية "قايتباى" التى يسمـيها الأوربيون حصن "فاروس" ومهمتها حماية المدينة من الجـهة الشمالية الشرقية، وحماية الميناء الشرقى، يقابلها من الطرف الشرقى لهذا الميناء طابية "السلسة"

"ويلى طابية "السلسة" شرقا قلاع أبو قـير، وهذه لم تشترك فى القتال لبعـدها عن ميـدانه، وبداخلى المدينة طابية "كـوم الناضورة" وطابيـة "كوم الدكة" وتعرف أيضا بكون الدماس.

وكان يحـيط بالمدينة من جهـة اليابسة سـور قديم يسمى السـور العربى الذى كـان باقيـا منه إلى عـهد قـريب بعض آثاره بجـهـة باب رشيـد "باب شرقى"، وهو سرور حصين به أبراج للمدافع.

وهذه الحصون منشأة من عهد محـمد على، ما عدا كوم الناضورة كوم الدكة فإنهـما منشآن من عهد الحملة الـفرنسية، وقلعة "قايتـباى" المنشأة فى

القرن الخامس عشر، وكانت الحصون سنة ١٨٨٢ بحالتها التى كانت عليها فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس. وقد أجرى فيها إسماعيل بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز أرمسترنج، وهى التى كانت تضاهى مدافع الأسطول البريطانى، وكان عددها ٤٩ مدفعا، أما المدافع الأخرى فلم يكن يعتمد عليها فى الضرب لقدمها وضعفها وقرب مرماها، ولم تكن لها أية قيمة حربية فى سنة ١٨٨٢، وهى معظم مدافع الحصون إذ كان عددها ٢٢٩ مدفعا والأهون وعددها أربعون.

وكانت حامية الحصون مؤلفة من ألاى طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية ١٧٦٢ مقاتلا بين جنود وضباط عددهم الحقيقى كان دون ذلك، ويقول عرابى فى مذكراته أنه لم يزد عن سبعمائة يوم الضرب، ويقول المسيو جون نينيه الذى شهد ضرب الإسكندرية أن نصف رماة القنابل "الطوبجية" كانوا متغيبين فى قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب. وقال أن الأميرال سيمور كان موقنا قبل الضرب أنه لن يلقى وفى ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم كان شاكى السلاح بالأمس ثم صار شبحا لا حراك فيه، وقال فى موضع آخر يصف إهمال حالة الحصون: "إن معظم المدافع القصيرة المرمى لم تتحرك من موضعها منذ نحو ثمان وثلاثين سنة حين ركبها لأول مرة جاليس بك Galice Bey مفتش الاستحكامات فى عهد محمد على.. أما المائة مدفع وواحد من مدافع أرمسترنج من عيار تسع إلى عشر بوصات، فكان منها ٦٤ فقط مركبة فى مواضعها، وأما ذخائرها فإنها لم تنقل من مخازنها بالترسانة".

يخلص مما تقدم بيانه أن الدفاع عن المدينة كان ضعيفا متخاذلا، وأن

القوة التى واجهت الضرب لم تتجاوز ٧٠٠ مقاتل. . أما حامية المدينة فلم تشترك فى القتال، وكانت مؤلفة من أربعة ألايات: اثنان منها كانا مرابطين أصلا فى المدينة، وهما الألاى الخامس من المشاة بقيادة الميرلاى مصطفى بك عبد الرحيم برأس التين، والألاى السادس بقيادة الميرالاى سليمان بك سامى داود، ويتألف من هذسن الألايين اللواء الثالث بقيادة خورشيد باشا طاهر، والجميع بقيادة الفريق إسماعيل باشا كامل. وقد زيد عليهما ألا بأن بعد مذبحة الإسكندرية، وهما الألاى الثانى بقيادة خليل بك كامل. والرابع بقيادة عيد بك محمد، ويتألف من هذين الألاين اللواء الثانى بقيادة طلبة باشا عصمت الذى جعله عرابى قائدا لموقع الاسكندرية وحاميتها.

ويقول عرابى أن كل ألاى من المشاة كان مؤلفا من ٣٠٠٠ مقاتل فيكون مجموع الجند يوم ضرب الإسكندرية ١٢٠٠٠ من البيادة "المشاة" و٧٠٠ من الطوبجية.

أما الأسطول البريطانى فكان مؤلفا من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس سفن مدفعية وسفينة للطربيد وأخرى كشافة.

ومعظم مدافع هذا الأسطول من طراز أرمسترنج وعددها ٧٧ مدفعا، والأسطول من هذه الناحية كان أقوى سلاحه من الحصون، وكان يفوقها فى سرعة تحركه وابتعاده عن الهدف، على حين أن الحصون كانت مستقرة يسهل على الأسطول رميها بمدافعه فيصيبها. وكانت خطته فى الضرب أن تجتمع عدة بوارج فتصوب نيرانها نحو حصن واحد، فتدمره أو تسكنه، ثم تتحول إلى الحصن الذى يليه. . وهكذا تستطيع أن تدمر الحصون حصنا بعد حصن، بينما الحصون لا تستطيع أن ينجد بعضها بعضا، فهذه المقابلة وحدها تنبئ

مبدئيا بمصير الضرب وتدل على أن كفة الأسطول البريطانى كانت أرجح بكثير من كفة الحصون المصرية.

أصدر الأميرال سيمور يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ تعليماته إلى بواجه لكى تأخذ موافقها يوم الضر على الترتيب الذى وضعه.

واتخذت البوارج موقفها على هذا النحو ليلة الضرب.. أما عن الاستعداد للضرب من ناحية الحصون، فقد استدعى عرابى تلك الليلة الأميرلاى إسماعيل بك صبرى قومندان حصون الإسكندرية. وكان عرابى وقتئذ "بالترسانة" يصحبه محمود باشا فهمى وطلبة باشا عصمت ومحمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية، وأصدر إليه تعليماته، فانصرف إسماعيل بك صبرى والتقى بضابط الحصون ووزع كلا منهم فى مركز عمله.

وأصدر أيضا تعليماته بتوزيع جنود الحامية على خطوط الاستحكامات من برج السلسة شرقا إلى قلعة العجمى غربا وفى ليلة ١١ يولية كانت البوارج الإنجليزية على أهبة القتال، أما الأسطول الفرنسى فقد انسحب إلى بور سعيد تنفيذا لتعليمات حكومته، ولم يترك سوى سفينتين لم تعملا عملا ما.. وهكذا ترك الفرنسيون الإنجليز وحدهم ينفرون بالضرب والقتال، ولو اشتركوا معهم لتغير وجه المسألة بالضرب ولما استطاع الاحتلال الإنجليزى أن يثبت أقدامه فى البلاد.

مأساة الضرب

فى الساعة السابعة من صبيحة يوم الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب.. فأطلقت البارجة "الكسندرا" أول قنبلة على طابية الاسبتالية، وتلتها البوارج الأخرى. فأخذت تطلق قنابلها المدمرة على

حصون المدينة وعلى المدينة ذاتها. أما القلاع فلم تجب على الضرب إلا بعد الطلقة الثالثة، بعد خمس دقائق، وكان الضرب من جانب الأسطول الإنجليزى شديدا مروعا، فكانت قنابلة محكمة المرمى شديدة الفتك، أما مدافع القلاع فكانت ضعيفة متراخية، وسقط كثير منها فى البحر دون أن تصلى إلى البوارج الإنجليزية.

وكانت البوارج أثناء الضرب تتحرك فى سيرها، يحجبها عن الأعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون إحكام المرمى وإصابة الهدف منها، وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ إذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدرت قوتها بحيث تضعف إذا نفذت إلى البارجة ذاتها. وقد ساعد على إحكام المرمى من جانب الأسطول أن الاستعداد الحربى من ناحية الإنجليز أقوى وأعظم منه من جانب القلاع المصرية إذ كانوا مطلعين على دقائق الاستحاكمات ومبلغ ما بها من المدافع والميرة والذخيرة ومخاون القنابل فيها، بخلاف العرابيون فإن معلوماتهم عن قوات الإنجليز كانت مشوشة ضئيلة، وكانوا يظنون أن البوارج الإنجليزية لا تقوى على هذه القلاع ولا تقف أمام مرعى قنابلها. وقد لا تقوى على هدم القلاع ولا تقف أمام مرمى قنابلها. وقد اتضح عكس ما يظنون، فإن البوارج قد دكت الحصون وعطلت مدافعها، فى حين أن الأسطول الإنجليزى لم يصب بضرر كبير.

استمر الضرب من الساعة السابعة إلى الساعة الحادية عشرة على أقصى ما يكون من الهول والشدة، وقنابل الأسطول تقذف الخراب وتحصد الأرواح.. ثم سكتت قليلا واستؤنف الضرب بعد هنيهة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، ثم وقف هنيهة أخرى، ثم استؤنف بعد ذلك إلى منتصف الساعة السادسة مساء قبل الغروب بساعة.

وقد تهدمت حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر، حيث اجتمعت عليها بالمدرعات الكسندرا وسلطان وسوبرب، ولما أسكتتها صوبت قنابلها إلى قلعة "الأطه" وعاونتها فى ضربها المدرعتان انفلكسيبل وتمرير المدرعات الخمس نيرانها على تلك القلعة فدمرتها بعد أن نسفت مستودع البارود فيها، ثم تحولت إلى قلعة "قايتباى" وظلت تقذفها بقنابلها إلى الساعة الخامسة ماء فخربتها.

وفى المنطقة الجنوبية من الساحل ضربت المدرعات انفنسبل وبنلوب ومونارك وانفلكسيبل وتمرير حصون المكس وأم قبيبة والدخيلة فأسكتتها فى منتصف الساعة الثانية عشرة، واتجهت السفينة كوندور إلى قلعة العجمى فضربتها بالقنابل حتى أسكتتها.

وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر شاهد الأميرال سيمور أن هذه الحصون قد أخلاها الجنود فأرسل عشرين بحارا إلى البر دخلوا قلعة "المكس" وأتلفوا مدافعها ثم عادوا إلى اسفنهم آمنين.

وفى منتصف الساعة الرابعة شوهدت مدافع طابية "القمرية" تتأهب للضرب.. وعاد الجنود إلى قلعة "المكس" المذكور وأخذتا فى ضربة حتى منتصف الساعة السادسة مساء حيث أمر الأميرال سيمور بالكف عن القتال، فوقف الضرب بعد أن استمر عشر ساعات متوالية.

وقد دافعت الحاميات عن الحصون دفاع المستميت، وقام رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا.. ولكن قوة الأسطول رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا.. ولكن قوة الأسطول ومدافعه كانت لها الغلبة فى هذا اليوم المشئوم، فتهدم معظم الحصون، وأصابت قنابل الأسطول كثيرا من مساكن الأهلين فدمرتها وأحرقتها، كما أحرقت جناح الحرم بسراى رأس التين.

وتفانى الأهلون فى الدفاع عن المدينة، على رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج. فبذلوا كل ما فى استطاعتهم من تضحية وإقدام.

وقتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو ألفين، ولم تزد خسائر الإنجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا..!

وقد استيقن العرابيون يوم ١٢ يوليه أن الإنجليز لابد محتلون الإسكندرية بعد أن دكوا حصونها، فاستقر عزمهم على الانسحاب من المدينة ليستعدوا للمقاومة فى الداخل، وكان الأحكم أن يقاوموا نزول الجنود الإنجليزية إلى البر بأن يوزعوا جزءا من قواتهم للمرابطة على الشواطئ ومنع رسو القوارب المقلة للجنود الإنجليزية.. فإنهم بذلك يعطلون نزولها مدة طويلة، وبخاصة لأن الأسطول الإنجليزى لم يكن قد تلقى المدد من جنود البر. وكانت قوته مقصورة إلى ذلك الحين على جنود البحارة ولم يكن عددهم يزيد عن ٥٧٠٠ مقاتل، وهؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يتغلبوا على حامية الإسكندرية.

حريق الإسكندرية

وكان فى مقدور الحامية أن تصدهم عن النزول إلى البر وتدافعهم لو حاولوا النزول.. ولكن العرابيين لم يفعلوا شيئا من ذلك لأنهم لم تكن لديهم قيادة صالحة تدبر الخطط المحكمة للقتال، فآثروا الانسحاب من الإسكندرية، ورأوا أن يتذرعوا بكل وسيلة لتعطيل احتلال الإنجليز للمدينة واستقرارهم فيها، فأمر سليمان سامى داود قائد الألاى السادس جنوده بإضرام النار فى المدينة لكى يحول الحريق دون نزول الإنجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم فشبت الحرائق الهائلة يوم الأربعاء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢

وبدأ إضرام النار فى نحـو الساعة الثانية بعـد الظهر وأخذ يمتـد حتى صارت الإسكندرية شعلة من النار مساء ذلك اليوم، واسـتمرت النار تضطرم فيها إلى اليوم التالى كان هذا الحريق من الوجهة العـسكرية عملا عقيما لأنه لم يعطل نزول الجنود الإنجليزية إلى البر فقد نزلوا فى صبيحة اليوم التالى، واشترك فى الحريق بعض الأوروبيين وبخاصـة من الأورام والمالطيين الذين بقوا فى المدينة بعد هجرة معظمهم، وكانوا يقصدون من ذلك المطالبة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب، كما اشتركوا أيضا فى النهب.

ويقول جـون نينيه عـميد الجـالية السـويسرية وكان شـاهد عيـان لهذه الحـوادث أن الحرائق الأولـى شبت فى الأحـيـاء الأهليـة من قنابل الأسطول الإنجليزى يوم الضـرب. وكان الحريق الذى أمـر به سليمـان سامى داود على غير رأى عـرابى والوزراء، فانفرد بإحداثه سليمـان دواد قائد الألاى السادس الذى كان مشهور بالتهور والحمق، وكان يعتبر نفسه عرابى آخر بالإسكندرية، وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الإسكندرية إلا بعد أن يجعلها خرابا. وهذا يدلك على تشعب آراء العـرابيين وعدم وجود وحـدة من قيادتهم، لأن عملا خطيـرا كحريق الإسكندرية ما كـان يجب أن يحدث إلا إذا صدرت به الأوامر مجمعة من قيـادة الجيش. ولكن الواقع أن عرابى لم يكن له دخل فيه ولما وقع لم يستطع أن يمنعه.

واستقـر رأى عرابى وصحبه على الانسـحاب من الإسكندرية ثانى يوم الضرب، فأخـذ الجيش يخليها يوم الأربعاء ١٢ يوليه. وفى مـساء ذلك اليوم غادرها عرابى ووصل إلى "حجر النواتية" على ترعة المحمودية بعد الغروب. وقضى الليلة هناك. وفى الصباح ركب رقاصـا سار به فى الترعة حتى وصل

به إلى "عزبة خورشيد" ومنها إلى "كنج عثمان" بالقرب من كفر الدوار. واتخذ عرابى عزبة "كنج عثمان" مقرا لقيادة الجيش.. وفى صباح يوم ١٣ يوليه تحقق الأميرال سيمور انسحاب العرابيين وأنه لم يبق منهم أحد فى المدينة فأنزل كتيبة من جنوده البحارة، واحتلوا سراى رأس التين وشبه جزيرة رأس التين.

أوروبا وضرب الإسكندرية

انسحبت فرنسا من الميدان، وأمرت أميرال أسطولهما بمغادرة الإسكندرية قبل الضرب.. فبارحها مساء ١٠ يولية سنة ١٨٨٢. ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسيى تركت إنجلترا تفعل ما تشاء وتعتدى ذلك الاعتداء الغشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد أرواح أهلها دون أن تبدى حراكا.. قابلت فرنسا هذا الاعتداء الوحشى بالجمود، ولو أرادت منعه لكان لها من مركزها الممتاز فى المسألة المصرية ما يحول دون وقوعه.. وكذلك فعلت دول أوربا العظمى فإنها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا أمام هذه المأساة.. ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوربية كاليونان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوربية وتوعدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده..

ولعلك تذكر موقفها حيال مصر ذاتها حين لبت نداء تركيا فى محاربة الثوار اليونانيين وما فعلته أوربا إذ ائتمرت بأسطولها فاحترقته غدرا وخيانه فى "نافارين" سنة انتصاراتها على الترك فى عهد محمد على الكبير وائتمرت بها وأنقصت المزايا التى نالتها بجد السيف. أما فى سنة ١٨٨٢ فقد تركتها لبطش الإنجليز دون أن تحرك ساكنا!

وليس من العسير علينا أن نفهم سبب هذا التباين فى المعاملة.. فأوربا

لا تنظر إلى مصـر بالعين التى تنظر بهـا إلى الأمم الغربيـة، ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به أمثال اليونان وبـلغاريا. ومما يدلك على مشاركة أوربا لإنجلترا فى مسـؤلية حوادث سنة ١٨٨٢ أنه لم يكد الجيش الإنجليـزى ينتصر على العرابيين فى واقعـة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو سـفير فرنسا بلندن إلى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجيـة إنجلترا وهناه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار. وكـان جواب جرانفيل على تهنئته "إن واقعـة التل الكبير هى انتـصار أوربى، ولو انهـزم الجيش الإنجـليزى لكان ذلك كـارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الاسلامى"!

وقد هنأ المسيـو دكلرك رئيس وزارة فرنسا السفيـر البريطانى فى باريس بهذه الواقعة قائلا: "أن انتصار الإنجليـز على العرب فى مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا فى تونس والجزائر!"

وقوبل نبـا الضرب فى "مـؤتمر الأستانة" بالفـتور والجـمود، ولم يكن المؤتمر قد انفض بـعد.. ولو كانت الدول الأوربيـة حريصة عـلى الدفاع عن حقوق مصر بل عن الحقوق عامة، لكان لضرب الإسكندرية صدى عاجل فى المؤتمر يحفزه إلى وضع حد لهذا الاعتداء. ولكنه على العكس قابله بالصمت والبـرود، ولم يبد أى إعـتراض عل إنجلتـرا فى نقضـها عـهودها، وخـاصة عهودها فـى ذلك المؤتمر بالذات. لم يكن لهذا الاعتداء أثر فـعلى فى نفوس المؤتمرى وهم سفراء الدول الأوربية الكبرى فى الأستانة، وكل ما فعله مندوب روسيا أن نفض يده من المؤتمر وامـتنع مؤقتا عن حضـور جلساته، وهو عمل سلبى لا يمنع الاعتداء ولا يحول دون استمراره.

وفى ١٥ يوليـه سنـة ١٨٨٢ اجـتـمع المؤتمر لأول مـرة عـقب ضـرب

الإسكندرية، وتحرك إلى دعوة لإرسال جيش عثمانى إلى مصر تنفيذا لقراره الذى أصدره فى جلسته السابقة - ٦ يوليه - ولم يكن قد أبلغه إليها من قبل، ورضى السلطان - أخيرا أيضا - بالإشتراك فى المؤتمر للمباحثة فى إقرار لوسائل الكفيلة بإعادة الأمور إلى نصابها. . بدأت إذن تركيا تشترك فى المؤتمر بعد أن أصبح لا عمل له، وأرسلت وزارة الخارجية العثمانية فى ١٩ يوليه تبلغه أنها تقبل الاشتراك فيه، وعينت مندوبيها به وهما سعيد باشا وزير الخارجية وعاصم باشا وزير الأوقاف، فحضرا جلسة ٢٤ يوليه - الجلسة العاشرة - وتولى سعيد باشا رياسة المؤتمر بصفته وزير خارجية الدولة التى انعقد المؤتمر فى عاصمتها، وصرح بأن الحكومة العثمانية قبلت مبدأ إرسالى جنود إلى مصر، وبجلسة ٧ أغسطس أعلن أن حكومته قبلت شروط التدخل التى قررها المؤتمر فى ١٥ يوليه. . . وكانت هذه الأقوال مهزلة أخرى، إذ لم تكن تركيا قد أعدت جيشا ما. . وأبطأت فى إنفاذ عزمها حتى انتهت الحرب بهزيمة العرابيين ودخول الإنجليز القاهرة قبل أن يتحرك الجيش إلى مصر!

قناة السويس

وكل ما عنى به المؤتمر أنه بحث بجلسته التاسعة يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ فى حماية قناة السويس من أن تصيبها الحرب بسوء. وذلك بناء على ما تظاهرت به إنجلترا من الخوف على القناة أن يسدها العرابيون بعد ضرب الإسكندرية، وكان هذا الخوف مع الأسف لا محل به، لأن عرابى لم يفكر جديا فى سد القناة، ولكن إنجلترا بادرت الإسماعيلية أى فى ٢٠ أغسطس، ولكن إنجلترا بادرت بمبادلة الدول تخوفها من هذه الناحية لكى تنتحل لنفسها حق حماية القناة إذا لم تتفق الدول على حمايتها دوليا. . .

وقد عـرض سفيرا إنجلتـرا وفرنسا فى المؤتمر بجلسـة ١٩ يوليه فى رأى حكومتيهما فى أن يكل المؤتمر إلى من يختار من الدول حماية القناة إذا أصابها اعتداء، ولم يلق هذا الاقـتراح قبولا من المؤتمر، فاتفقت إنجلتـرا وفرنسا على أن يصرح سفيراهما فى المؤتمر بأنهما مستعدتان عند الحاجة إلى حماية القناة، وقد صرح السفيران بذلك فى جلسة المؤتمر الحادية عشرة التى انعقدت يوم ٢٦ يوليه، فلم يعترض المؤتمر ولم يبدا احتجاجا.

وأبلغ البـاب العالى أعـضاء المؤتمر فى ٢٤ يوليـه فى ٢٧ منه أن جنوده على أهبة السفر إلى مـصر وأنه مستعد للتدخل فيهـا، ولكن بلاغه لم يتقرن بأى عمل، وعـرضت وزارة المسيـو دى فريسينيـه على البرلمان الفـرنسى فتح اعتمـاد لإعداد القوات الكفيلة بجـعل القناة فى مأمن من كل اعتـداء وحماية السفن المارة فيها، ولكن البرلمان قرر فى ٢٩ يوليه رفض الاعتماد المطلوب. . مما أدى إلى استقـالة وزارة فريسينيه واضطرار التى خلفـتها - وزارة دكلرك - إلى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا على قرار إلى أن تنفض يدها من المسألة المصـرية نزولا بنفض يدها بل بإفلاس سـياستـها فى المسـألة المصرية، والسبب الذى حد بالبرلمان الفرنـسى إلى رفض الاعتماد هو الخوف من توزيع قوات فرنسا فى وقت كانت تخشى فيه على كيانها فى القارة الأوربية من تحفز ألمانيا، فهو نفس السبب الذى حدا بالوزارة الفرنسية إلى الأحجام عن مشاركة بريطانيـا فى تدخلها الحربى حـين عرضت عليـها ذلك فى يوليـه ١٨٨٢ قبل ضرب الإسكندرية.

وفى الوقت الذى أصـدر البـرلمان الـفـرنسى هذا القـرار قـرر البـرلمان البريطانى فى ٢٧ يوليه الاعتمـاد المطلوب من الحكومة الإنجليزية للحملة على

مصر، وذلك بأغلبية ٢٧٧ صوتا ضد ٢١ صوتا أى بأغلبية تشبه الاجماع، وبلغ الاعتماد الذى قرره ٢٣٠٠٠٠ جنيه.

يتضح مما تقدم أن المؤتمر لم يكن يعنيه رد الاعتداء عن مصر، بل كل ما همه وشغل باله أمر قناة السويس.. وقد انتهى من مباحثاته العقيمة إلى ترك الإنجليز يتصرفون كما تهوى أطماعهم الاستعمارية.

اجتمع المؤتمر للمرة الأخيرة يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٨٢، وكانت الجنود البريطانية قد زحفت فى داخل البلاد وظهرت بوادر انتصارها على العرابيين.. فلم يجد المؤتمر عملا يشغله سوى تأجيل انعقاده إلى أجل غير مسمى، ولم يجتمع بعدها إذ كانت قوات الإنجليز قد تغلبت على العرابيين، وبذلك انطوت صفحة المؤتمر بدون أن يعمل عملا ما فى صون حقوق مصر، ورد عادية الإنجليز عنها، وأخفق إخفاقا جعله مضرب الأمثال فى المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والإخلاص.

***